الخطوط العامة في تطور النقد العربي القديم

الدكتور : داود سلوم
قسم اللغة العربية

الجاهلية بالنسبة لظهور الاسلام وحضارته المنظمة النامية المتطورة تمثل فترة البربرية الاولى ، فهي مرحلة طفولة الامة العربية التي شبت عن الطوق وترعرعت بعد نزول القرآن الكريم، وقفزت قفزات واسعة جدا من الظلام الى النور ومن طريق وعر الى طريق واضح لاحب ومن فوضى الى نظم ومقاييس وتقنين •

من الصعب جدا ان يحدد لنا اي باحث او مؤرخ معاصر موقف المفكر الجاهلي ـ الذي يتمثل في فارس القبيلة او رئيسها ـ من الشعر والشاعر والمضمون والشكل كظاهرة فنية في المجتمع •

واذا وجدنا شيئا عن الشعر وقوته فانما نجده في ادب الشاعر نفسه[1] وان ما يذكره الشاعر عن شعره لا يمثل وجهة نظر مستمعة وانما يمثل وجهة نظره هو وفي الغالب في مقام الفخر وليس في مقام التأمل والتروي •

أ ـ موقف الرسول من الآدب ومقارنته بموقف افلاطون :

وحين نصل الى السنين الاولى من كفاح الرسول (ص) في سبيل نشر دينه نجد ان ابعادا واضحة قد ظهرت بالنسبة لموقف الرسول (ص) او الصحابة او القرآن ذاته من الفن الشعري •

ان الذي يهمنا بالنسبة للشعر هو موقف القرآن ككتاب سماوي وموقف الرسول (ص) كمفسر للقوانين الآلهية والاوامر والنواهي وكفرد يحاول ان يلائم بين النظرية والتطبيق وبين المثال والحاجة في سلوك

الجنس البشرى •

وهذا يقودنا حتما الى مقارنة ما بين « موقف الرسول (ص) والاسلام » وهو واحد وبين « موقف افلاطون » لا لوجود شبه بين الشخصيتين من حيث الطبيعة والتحديد وانما لوجود موقف من الشعر والفن يوجد بينهما بشكل عام •

ويمكن ان نلمح السبب الذى جعل موقف كل منهما يختلف عن الآخر من الادب وهو سبب تفرضه الظروف التى وجدا فيها • فافلاطون هو رأس جمهورية نظرية وخالق مجتمع مثالى يعيش فى كتاب وهو الذى يخطط الابعاد النفسية والخلقية لافراده وطبقاته • اما الرسول (ص) فهو مقنن فى مجتمع بشرى واقعى له ظروفه وملابساته وقد التقى افلاطون والرسول فى نقطة واحدة مهمة ان كلا منهما فى حدود وطبيعة واجباته له الحقوق الكافية للتقنين الجديد فى مجتمع قديم • وهذا هو الذى اظهر الفرق العجيب بينهما •

وهو : ان افلاطون استغل حقوقه فافسد ارض جمهوريته المثالية وحرمها من العواطف الانسانية التى تكون نصف الكيان الانسانى الذى يتكون من روح وجسد[٢] او فكر وعواطف • اما الرسول (ص) فقد احتفظ بشكل مدهش عجيب يحفظ هذا التلاؤم وهذا المزج الدقيق فكانت اوامره ونواهيه فى باب الشعر والفن صورة واقعية ومثالية فى نفس الوقت وهذا منتهى ما يرمى اليه المشرع من نجاح وسلامة فكرة وذوق وادراك وتفهم للملابسات القائمة والمتولدة[٣] •

فالرسول ـ بكل بساطة ـ اعجبه الشعر وتصور اثره العجيب على النفس والعقل وقال (ص) : « ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا » وأهم من ذلك كله ادرك ان الظاهرة الشعرية كظاهرة تعبيرية فنية فى خلجات النفس حقيقة ثابتة راسخة لايمكن اماتتها بالوعد والوعيد وبالترغيب

او الترهيب وانما يمكن فقط تشذيبها وتوجيهها والافادة منها فى حالتى المد والجزر الفنيين •

ولذا فقد روى عنه (ص) قوله : « لا تترك العرب حتى تترك الابل الحنين » وهذه العبارة البسيطة هى التى توحي بالفرق البعيد والخلاف الكبير بين تقنين محمد (ص) الفنى وبين تقنين افلاطون وهى التى تضع موقف محمد (ص) العقلى من المشكلة الفنية فى مرتبة ارقى كثيراً جدا من موقف افلاطون •

فمن التطبيق العملى لموقف الانسان من الفن وموقف السلطات من النشاط الفكري نجد ان افلاطون فى قوته المدمرة للفن فى الجمهورية يقف فى اسفل الهرم رغم انه لم ينجح فى قتل الاحساس الفني فى نفوس ابناء امته كما لم تنجح الكنيسة فى اوربا فى القرون المظلمة فى صد تطور الفكرة العلمية وتقدمها •

وبمقارنة موقف الرسول (ص) وموقف مختلف النظم الرأسمالية والاشتراكية على اختلاف مراحل تطورها الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ان نلمح ببساطة مطلقة جدا اثر الادب والفن فى كيان هذه المجتمعات واثره فى السلطات وتأثير السلطات فيه ، وكل شىء يقبل من اي مفكر الا تحريم هذا النشاط المقدس ، الا ان موقف الرسول (ص) لا زال يعلو على كثير من مواقف العنف والتحديد وفرض القيود على المفكر •

وهذا يدلنا على اصالة ما رمى اليه الرسول (ص) فى موقفه من الشعر فى فترة بربرية الفكر الانسانى وقد ادرك (ص) ما يجب ان يكون موقف السلطة من الأدب ، والفكر الانساني آنذاك فى عجزه المطلق عن الادراك السليم الواضح للامور المطلقة والمجردة •

ولم يحاول الرسول ان يؤثر فى الشعر تأثيراً مباشراً بتحويل اغراضه

من غرض الى آخر وانما ابقى الاغراض كما هي فى الغالب وحاول الافادة منها وتطويعها وتطويرها لمواجهة المشاكل والازمات الجديدة .

فهو قد استمع للغزل[٤] دون يشك احد فى ذلك فى قصيدة « بانت سعاد » وانشده الشاعر من فوق منبر الدولة وهذا اعظم شرف يمنحه شاعر فى الدنيا وهو ان ينشد من فوق منبر الدولة الرسمي هذا اذا قيس هذا الشرف بما يعطاه الشعراء من اموال او جوائز هى فى الواقع عطايا لشراء الذمم ولا زال هذا يفوق ما تمنحه الدول المعاصرة للشاعر والفنان من « القاب » كما فى بريطانيا او غيرها من دول الحضارة الغربية . كان ذلك قبل اربعة عشر قرنا ولا زال ذلك الشرف اكثر اصالة واكثر معنوية.

وان اردنا الاستنتاج من امثال هذه الروايات والاخبار والاستدلال منها على موقف الاسلام سوف نصل الى حقيقة بسيطة ومهمة وهى : الاهمية المطلقة التى اولاها الاسلام للفنان والاكرام الغامر الذى غمره به فى سبيل ان يؤدى رسالته الفنية غير « مقيد » او « محدد » او « مهدد » وافاد الرسول (ص) من الاغراض الشعرية كالهجاء[٥] والمدح فى هجاء الخصوم او مدحه او مدح مناصريه وحلفائه . وان القرآن حين تكلم عن الشعراء فانما حاول تحديد طبيعة الفن الشعرى وقابليته على الاغواء والاغراء والتضليل وصرف النظر عن العقل والجنوح الى العاطفة والميل والهوى والتسامح وهذا لا يتضمن نهياً او امراً ولا ايحاءً بشيء ما[٦] ولم يشجع الاسلام النَظْم بشكل صريح فى الخمرة او القمار او ما شابه ذلك الا انه لم يعاقب على النظم في هذين الموضعين وميز بوضوح بين شرب الخمرة والمقامرة وبين الكلام عنهما . وادرك قابلية الشعراء على خلق الحديث دون ممارسته واتيانه ووصف الشعراء بـ « انهم يقولون ما لا يفعلون » .

وانى ارى ان الاسلام هنا فتح الباب على مصراعيه كى ينظم الشاعر الفنان فى كل باب وكل غرض ما دام الشاعر لم يمارس ما يصفه وفى هذا

مطلق الحرية الفنية التى يفتقدها الفنان فى بعض الدول ذات البرامج السياسية فى عالمنا المعاصر وبذلك يكون الرسول من خلال اوامر القرآن ونواهيه قد فاق ايضا كثيرا من مفكرى القرن العشرين[٧] .

ب ـ هل اضعف الاسلام الشعر ؟

ولا نريد ان نمر هنا دون الاشارة الى مسألة تثار وهي : « انالاسلام اثر فى الشعراء واخافهم فاضعف اساليبهم » وهذا المنطلق محاولة لتمرير كثيرمن الشعر المنحول غيرمعروف القائل ونسبته الىشعراء معروفين شاركوا فى الكفاح الفكري والسياسى فى صدر الاسلام . والفكرة فى حد ذاتها سقيمة وغير مقنعة لاسباب عديدة منها ما شرحناه ومنها ان الاسلام اغنى الفاظ العرب ومعانيهم بما استحدثه من نظم ومسميات والشاعر فرد فى هذه البيئة التى نشطت لغتها ونمت فجأة بشكل عنيف ومباشر بعد ان انضوت اليها مئات الالفاظ والافكار الجديدة ويدرك الانسان بسهولة اثر القرآن الكريم مثلا فى النثر الاسلامي فى حديث الرسول وخطب ورسائل الصحابة وفى طراز تفكيرهم الرائع الذي تحول عن تفكير قبلي بدوي متأخر الى تفكير انساني واسع وعميق . فكيف يتأثر به الخطيب والكاتب ولا يتأثر به الشاعر .

أما الذى نجده من جمود وركود فى العاطفة عند بعض الشعراء الاسلاميين الذين نوثّق شعرهم مثل لبيد وآخرين فالامر فردى عائد اليهم. وقد احدث الاسلام فى سلوكهم نوع من الردة عن المثل الجاهلية الفنية الى المثل الاسلامية الجديدة وبذلك افتقد الشاعر الحماسة المطلوبة لهذا النوع من الآدب الفني حيث تلعب فيه المرأة والغزو والحماسة والهجاء ادوارا كبيرة[٨] .

جـ ـ نشوء فكرة طبقات الشعراء :

وعلى اساس الاعجاب الفردى المحض أو الشهرة الكبيرة لامرىء

القيس فقد روي للرسول (ص) حديث فى تفضيله[٩] وروي فى خبر تفضيل عمر بن الخطاب (ر) لزهير او النابغة[١٠] .

وبسبب الالتزام الدينى ورغبة المسلمين فى اتباع « سنة الرسول » فى امور الدين والدنيا فاننا نجد ان « تفضيل » امرىء القيس سرعان ما يصبح « قاعدة فنية » فى كل الدراسات الشعرية وكتب الطبقات وهذا التفضيل نقله الصحابة الذين انتقلوا الى العراق وسكنوا فى الحاضرتين اللتين انبثقت منهما الحركة اللغوية والادبية فيما بعد وقد صرح الامام علي بالبصرة بتفضيله لامرىء القيس[١١] ايضا ، وظهر تفضيل النابغة أو زهير فى مدارس مضادة وان كان تفضيل امرىء القيس هو الاساس الذى بنيت عليه كتب الطبقات كافة بعد ذلك .

ء ـ الميل الاخلاقى وظهوره :

وان التغير الاخلاقى بين موقف الجاهلية والاسلام والتغير العلمى الذى اصبح فى الاسلام ضرورة للمحافظة على القرآن الكريم فى البيئة الجديدة النامية المختلطة .

كل ذلك دفع بالفقهاء وكبار السن[١٢] والخلفاء الى دعوات « اخلاقية وتعليمية » على الشعر ان يؤديها الى قرائه .

ولعل الصراع بين الترف الجديد النامي فى الحجاز وبين رغبة ابقاء القديم على قدمه كان سببا من اسباب ظهور هذا النقد الاخلاقى وقد شارك بعد ذلك الخلفاء فى هذا الموضوع مجاراة للجمهور او ترضية للخاصة المحافظة[١٣] وشارك بعد ذلك المفكرون الجادون والمتزمتون فى البصرة ونلمح ذلك فى موقف المعتزلة من شعر بشارد بن برد[١٤] وكان احتجاجهم وضجيجهم سبباً من أسباب قتله وتدميره وان الصراع بين الاجيال والاختلاف فى وجهة النظر بين الشاب والشيخ تجعلنا ان نفترض اثرا آخر فى نشأة

هذا النقد الاخلاقى وهو أمر طبيعى يكاد يحسّه افراد كل جيل مع الجيل السابق .

هـ ـ الملاحظات الاولى واثرها فى النقد :

وهناك ملاحظات مهمة ولكنها لا تشتهر باسم واضعيها بمقدار ما تشتهر باسم مقتبسيها من النقاد وبذلك يظهر تأثيرها فجأة وقد يمتد الى قرون ولعل اهم تلك الملاحظات ما اصدره الامراء والولاة والخلفاء والمعجبين بالشعر ، « كالنقد الرسمي » الذي اصدره خلفاء وولاة بني امية حيث فشل الشاعر فى خطاب الشخصية الرسمية .

ومن هذه الملاحظات الاسلامية الاولى التي أثرت فى نشأة النقد مسألة « المقارنة الفنية » التى يجب ان تتم بين شاعرين اذا توفر فيها وحدة الموضوع والزمن وهى التى قادت الى موضوع السرقات الشعرية فى علم البلاغة .

واول ما روى هذا النوع من الملاحظات النقدية المقارنة ، ملاحظة رويت عن علي بن ابي طالب وقد اطلقها فى معسكره فى البصرة بعد خصومة حادة بين جنده حول الشعر[١٥] .

ورغم انها لم تكتسب الشهرة المطلوبة فى دراساتنا المعاصرة الا انها تركت اثرها الممتاز فى كتاب « الموازنة بين الطائيين »[١٦] ولا يعدو الآمدى فى منهجة ملاحظة الامام علي وان كان للآمدي فضل التطبيق والتنفيذ للرأى الذى اطلقه الامام فى فترة من فترات حياته وهو غير واعٍ لصداه او اثره العميق الذى احدثه فى الدراسات النقدية الاسلامية .

و ـ اثر المرأة الحجازية فى النقد :

وفي الحجاز ، بيئة الترف واللهو والفراغ والمال والعبث الاخلاقي الذي نشأ بسبب ما أصاب الحجاز من أموال تركزت فى يد أهله بسبب

مشاركتهم الكبيرة فى الفتوحات فى مراكز القيادة والزعامة وما جلبه هذا لهم من أموال تفوق الحصر ومما أصابه بعض الشخصيات المهمة من لهى ورشاوى وعطايا من الدولة لمنعهم من التحرك السياسى •

وان هذه الاموال التي تعد بالملايين تركت اثرها على السلوك والمظهر واللباس والمأكل والمسكن وتسرب الترف من رب الاسرة الى أهل بيته فأخذ كل بحصة منه • وهنا ، نمت « المرأة الحجازية » فى هذا الترف الغامر فرق ذوقها وللمرأة فى المدن المزدحمة الحضارية مقاييس اخلاقية تختلف عن المرأة فى البادية وما يعتبر فضيلة فى البادية قد يعتبر عيباً أو نقصاً فى المدينة والعكس بالعكس • ولذلك فان كثيرا من نقد المرأة الحجازية ومن شاركها من الرجال فى ذوقها ومنطقها قد توجه الى شعر الغزل الذى كتبه شعراء البادية الذين يفدون الى الحجاز للحج والانتجاع والزيارة(١٧) واشتهرت شخصيات نسائية لامعة فى هذا الباب ونقل الموشح والاغانى كثيرا من النصوص فى الموضوع آخذت فيه السيدة الحجازية الشاعر البدوي على تقصيره فى رسم الصورة المثالية لاخلاقية المرأة او مظهرها او فى جمود موقفه النفسي والاخلاقي وبعده عن موقفها الفردي الذي ينبع من بيئتها المترفة اللنية او تقاليد البيئة الحضرية المتسامحة سواء اكان ذلك فى الخير او الشر او الفضيلة او الرذيلة وان تشعبا آخر من هذا النقد الحجازي توجه الى ذم المفارقات والصورة الغريبة او البعيدة او القاسية او الصريحة الخ •••

وهذا غالبا ما ينال شعراء الحاضرة انفسهم الذين لم يكتفوا بالسير فى تيار البيئة الاخلاقي بل أرادوا الاغراق والخروج عن المألوف احيانا كعمر بن ابي ربيعة الذي يطلب من محبوبته ان تقبله : « ولو كنا على ظهر الطريق » مما جلب عليه غضب الخليفة •

ز ـ اثر السلطة فى النقـد :

وتمكن الاسلام فى فترة قصيرة من الزمان ان يبسط نفوذه عـلى بقايا الحضارات القديمة وان يمتد الى رقاع واسعة لم يسبق لدولة واحدة فى العالم القديم وصلت الى ما وصل اليه الاسلام من امتداد •

كل هذا داخل نطاق الاسلام فى العقيدة وفى البداوة فى السـلوك. فالدولة الاسلامية لم تظهر فيها تقاليد الملك المعقـدة فى حيـاة الرسـول او حياة الخلفاء الراشدين فسلوك الرسول والخلفاء الاربعة وسلوك قادة الفتح والولاة الاول سلوك بدوي محض فيـه البسـاطة وفيـه السـهولة واليسر ، لا يحتجز فيه الحاكم عن المحكومين ، وتسهل مقابلة المسـؤول والحديث مه او الكتابة اليه وحين انتقلت الخلافة الى الشام وكان قد سبقها اعداد اولي فى امارة معاوية قبل الخلافة لتأسيس « نظام اجتماعى وسياسى » يختلف فى طابعه العام عن « ديمقراطية البداوة او بساطة الاسلام » ومن هنا نشأت تقاليد الملك الجديدة وصحبها ظهور الادب الرسمي والنقـد الرسمي •

وبذلك يمكن ان يكون « النقد الرسمى هو الصراع بين سـلوك الارستقراطية وبين سلوك الشاعر البدوى » الذى ينبع من طبيعة بيئتـه وتكوينه الاجتماعي والديني •

وقد يفوت على الشاعر أحيانا أن يدرك التغير النفسي عنـد الحاكم الجديد كما ادرك التغير الخارجى فى المطعم والمشرب والملبس والمسكن • وقد يخيل لكثير من الشعراء ان هؤلاء الحكام الذين جاؤا من اصـول بدوية بقوا يحملون معهم سلوك اجدادهم البسـيط البعيد عـن التعقيـد الحضاري وكان هذا الوهم قد أعطى النقد الرسمي المادة الدسمة للتعليق على الشعراء • ومن هؤلاء الشـعراء الذين تعرضوا لهـذا النقـد جرير وكثير[١٨] وغيرهما من شعراء جيلهم •

ح ـ التراث الشعبى والنقـد :

وصاحب نمو النقد فى القرن الاول بقاء التراث « الفلكورى والشعبى والمعتقدات الشعبية التى تفسر بعض الظواهر الفنية بالاضافة الى ما تفسر من ظواهر اجتماعية واخلاقية اخرى » •

فمسألة وراثة الخصائص النفسية والاطباع والامزجـــة والقابليات الفنية ، مسألة كانت شائعة ومعروفة لدى عامة العرب وكانت القيافة احدى هذه العلوم التى تعتمد على هذه المادة كوسيلة من وسائل بقائها • ومما يفيدنا فى باب الأدب والنقد ان عقيدة شعبية شائعة كانت تعيش فى الجاهلية وصدر الاسلام حتى نهاية القرن الاول كان لها اثرها فى النقد فى ذلـــك القرن فقط ، ثم زال هذا التأثير الا وهى : « مسألة وراثة القابلية الشعرية » عن الاخوال بواسطة الامهات اللواتى لهن قابلية نقل خصائص قبيلة الخال الى ابن الاخت بشكل خاص ولذلك فان القبيلة التى ينشط فيها الشـــعر يكون لنسائها فضل نقله الى أولادهن الذين يلدنهـم فى قبائل اخرى بعيدة عن اعراق القبيلة التى تنتمى اليها الام • وكانت المسألة مسلما بها فـــى الجاهلية وصدر الاسلام فقد اطلقوا لقب النابغة على الشاعر الذى يولـــد وينشأ فى قبيلة لم تعرف الشعر ولم تجلبه لهم امرأة من قبيلة شاعـــرة مثـلاً[١٩] ويتفرع من هذه الحقيقة لسان آخر له خطورته ، فهو نموذج من نماذج العنصرية المقيتة حامله بشكل خاص الفرزدق الشاعر الاول فى النصف الثانى من القرن الاول دون منازع • ونقصد بذلك « النزعة العنصرية العنيفة التى تتعصب للشعر الذى يقوله عربى » وكان الفرزدق يعتقـد ان الشعر ما دام قائله عربيا فهو شعر جيد وما دام قائله أجنبيا فهو شـعر غير جيد • قال :

وخير الشعر أكرمـه رجالاً وشـر الشعر ما قال العبيد[٢٠]

ومن حسن حظ النقد الادبى ان هذه العقائـد الشـعبية ســرعان

ما اختفت امام سيل الحقائق الغامر الذي كذّب هذه النزعات المريضة وذلك حين ظهر فى القرن الثانى عدد كثير من الشعراء لم تربطهم بالعرب الا اللغة والدين ولم يعرفوا قربى الدم مع اسيادهم •

ومن بقايا هذا التراث الشعبى « مسألة شياطين الشعراء » ووحيها للشاعر وهى عقيدة كان العرب فى اول الدعوة يؤكدون وجودها وقد ردها القرآن عليهم حين اتهموا الرسول (ص) بان الشيطان يوحى اليه قال تعالى « : هل اخبركم عن من تنزل الشياطين ؟ » •

ولعل جذور العقيدة تعود الى « اصول سامية غابرة اساسها الاستعانة باله الحكمة والشعر على قول الشعر ونظمه » •

ووضع الرواة غير المؤتمنين اسما لشيطان كل شاعر وهناك نوادر وفكاهات تدور حول ما يوحيه الشيطان من شعر جيد او رديء للشاعر •

فـ « هبيد » و « مدرك » و « الصلادم » و « واغم » و « مسحل » و « لافظ » و « هاذر » « الهوبر » و « الهوجل » اسماء بعض شعراء الجن او شياطين شعراء الانس • ولعل المسألة فى اساسها ـ كما قلنا قبل قليل ـ هى من بقايا تراث متدهور لعقيدة الساميين الاولى عن وجود اله الحكمة والشعر الذى يوحى للشاعر ومنهم انتقلت الفكرة الى الفراعنة واليونان والرومان وبقيت جذورها فى الجزيرة وبمرور الزمن وبانقطاع التراث استحالت الى بقايا شعبية وعقائد اشبه بالشعوذة منها بالمذهب النقدي[٢١] •

وهذه العقيدة لم تترك هى الاخرى اثرا بينا على طول خط تطور النقد العربي وانحصر أثرها فى انها تمثل لنا وجهة نظر قديمة متحجّرة ليس غير •

ط ـ المفهوم الفقهى للسرقة واثره فى نشوء دراسة السرقات الشعرية :

وافاد النقد الادبى فى القرن الاول من « المسائل الفقهية » التى

تمس قضايا السرقة والحقوق والملكية • فقد نبه الاسلام الى مدلولات جديدة لم يكن الجاهلى يفقهها من قبل ـ منها : قضية سرقة اموال الغير التى كانت فى الجاهلية تفسر بانها ظاهرة من ظواهر « البطولية الفروسية » وان النظر في السرقات الادبية لشعر الغير لفظا ومعنى[٢٢] قادنا بالتالى الى تفهم طبيعة « السرقة الفنية » ودراستها من جوانبها المختلفة مما ادى الى ظهور علم « سرقات المعانى » وهو فى الواقع جزء من علم « المقارنة الادبية فى المعانى داخل ادب واحد ولامة واحدة » ، ولم تظهر دراسات عميقة وجدية فى اثر الفكر الاجنبى فى الآدب العربى الا فى حدود القرن الرابع حين كتب الحاتمي[٢٣] دراسته عن سرقات المتنبي من أرسطو • وأغلب الظن ان أقوال أرسطو هي نفسها من المنحولات المسروقة من أقوال الآخرين وقد نسبت الى ارسطو ترويجا لها ولعل الحاتمى نفسه نثرها من شعر المتنبى ثم عاد فنسبها الى ارسطو وادعى ان المتنبي قد اخذها عن الفيلسوف اليوناني •

ي ـ تقديس الشعر الجاهلى وردود الفعل :

ولعل أهم رجة تعرض لها النقد الادبى فى القرن الثانى وكان لها الاثر العميق فى تطوير النقد العربى ونضوجه وظهور علم البلاغة ـ هي مسألة « القديم والحديث » •

فهي أول الامر وفى القرن الاول ظهرت على أساس تقديس أدب الجاهلية كأدب خالص من العيب[٢٤] مطلق الصحة ، ومن هذا المنطلق شعر نقاد القرن الاول يخرج من رواية شعر الاسلاميين مثل جرير والفرزدق والكميت وذي الرمة حتى قال ابو عمرو بن العلاء : « لقد احسن هذا المحدث حتى كدت اروي له » •

ولكن تطورا تدريجيا ادخل شعر الاسلاميين من العرب فى نطاق القبول الادبى ، واستخدم شعرهم فى الشاهد النحوى والمثل اللغوى

واستمر هذا القبول حتى عصر بشار وهو العصر الذى وقف عنده سيبويه •

واستحدث موقف جديد هو قبول شعر البداوة والعروبة ككل ورفض شعر الحاضرة وكان اغلب شعرائها من المولدين • واستمر على هذا الموقف المتزمت جماعة من اهمهم خلف الاحمر[٢٥] وأبو عبيدة[٢٦] والاصمعي[٢٧] وابن الاعرابي[٢٨] •

وفرضت البيئة الجديدة نفسها على الناس فقد عكسها الشعراء بدقة وامانة وشعر الناس ان خير من يعبر عن حياتهم اليومية انما هم هؤلاء الشعراء بالذات وليس شعراء البداوة الذين بعد بهم الزمن وان المعاني التى ولدها هؤلاء الشعراء الجدد كانت من الجودة والطرافة بحيث اغرت كثيرا من النقاد الكبار بالوقوف عندها لتأملها كما ان الحاجة الى سلامة اللفظ البدوى لم تعد قائمة بعد استقرار علمي اللغو والنحو •

وكانت نهاية القرن الثانى قد آذنت بظهور المؤلفات التى ارست دعائم النقد الادبى الذى ظهر ناضجا واضح المعالم فى القرنين الثالث والرابع الهجريين •

وبذلك نشأ انصار ذوو ثقافات متعددة قارنت بين قديم العرب وحديثهم وبين معانى العرب ومعانى غيرهم فالفوا فى تفضيل المحدثين او على الاقل قبولهم كظواهر فنية لا مفر من الاعتراف بهم وكان منهم الجاحظ[٢٩] وابن قتيبة[٣٠] ، ثم ظهر نقاد كبار اعتمدوا فى دراستهم على هذا التراث الحديث مثل الآمدى وابو الفرج والجرجاني وغيرهم • وكان هذا الاهتمام بالشعر الحديث ومحاولة ايجاد تفسير لطرافته قادهم الى نشأة علم مهم يبحث فى جمال اللفظ والشكل والتوافق بين هذا الشكل وبين المضمون والمعنى ـ وهذا العلم هو « علم البلاغة » واعتمد فى نماذجه الكثير على شعر المحدثين مثل بشار وصريع الغواني وابي نواس

وابي تمام[٣١] وبذلك التحم الشعر القديم بالشعر الحديث فى مقام واحد ولاول مرة ٠

ثم وضعت له الآثار التى حصرت هذه النماذج وصنفتها مثل بديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدامة وما شاكلهما من آثار العرب الاقدمين ٠

المراجع والنصوص :

(١) المفضليات ص ١٤٥ (ب ٧٩)
ونفس المصدر ص ١٠٠ (ب ٥٨ ـ ٦٣) للمزرد
والمفضليات ص ٦٢ (ب ١٥ ـ ١٦) قال :

فلأهدين مع الرياح قصيدة مني مغلغلة الى القعقاع
ترد المياه فما تزال غريبة في القوم بين تمثل وسماع

(٢) اسس النقد الادبى ٠ جمعها شوزر وآخرون وترجمتها السيدة هيفاء هاشم ٠ دمشق ١٩٦٦ عن جمهورية افلاطون ص ١٣ و ص ٢٢ ٠
وعن نفس المصدر ص ٣٠ قال : « ونكون مصيبين اذا رفضنا السماح له (اى للشاعر) بالبقاء فى دولة منظمة تنظيما حسنا لانه يثير المشاعر ويغذيها ويقويها بينما يضعف العقل » ٠

(٣) جمهرة القرشي ت بجاوي ٠ قاهرة ١٩٦٧
ص ٢٩ قال الرسول (ص) : « ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا »
وقال (ص) : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين »

(٤) شرح ديوان كعب بن زهير للسكرى ص ٦

(٥) قال الرسول (ص) لحسان :
« اهجهم وروح القدس معك »
وقال لكعب بن مالك : « ان المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه »

(٦) سورة الشعراء ٠

(٧) فريفيل : الآدب والفن فى ضوء الواقعية ٠ قاهرة ٠ د ٠ ت ٠
ص ١٣٩ « فى المجتمع المقسم الى طبقات يعكس الآدب والفن بطريقة مباشرة او غير مباشرة معنويات طبقة معينة منه واراءها السياسية وذوقها الجمالي »
و ص ١٤٥ : « وفى رأى الفيلسوف انجلز ان روائع الاعمال الادبية تعبر جميعها عن رأي فى الوجود وتترجم عن موقف معين حيال

النظام الاجتماعى القائم وعن نقد وعن امل واتجاه »

(٨) الموشح للمرزباني ٠

ص ٨٥ قال الاصمعي : « طريق الشعر اذا ادخلته فى باب الخير لان ٠ الا ترى ان حسان بن ثابت كان علا فى الجاهلية والاسلام فلما دخل شعره فى باب الخير من مراثي النبي (ص) وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم لان شعره ٠ وطريق الشر هو طريق شعر الفحول ، مثل امرىء القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار فاذا ادخلته فى باب الخير لان »

(٩) جمهرة القرشي ص ٤٢

قال (ص) عن امريء القيس :

« وكأني انظر الى صفرته وبياض ابطيه وحموشة ساقيه ، فى يده لواء الشعراء يتدهدى بهم فى النار »

(١٠) جمهرة القرشي

ص ٦٩ « قال عمر (ر) : يا بن عباس الست تنشدني لشاعر الشعراء ؟ قلت : لم صيرته شاعر الشعراء ؟ قال : لانه لا يعاضل بين الكلمتين ولا يمدح رجلا بغير ما فيه »

ص ٦٧ قال ابن ابي بردة : « اخبروني من السابق من الشعراء والمصلى منهم ؟ قلنا : اخبرنا انت ايها الامير وكان اعرف الناس بالشعر ٠ فقال : أما السابق فالذى سبق فى المديح (وينشد بيتا لزهير)

ص ٦٧ : « وقال الذين قدموا زهيرا على امرىء القيس : هو أشعر العرب وانما قال رسول الله (ص) فى امريء القيس : انه يقدم الشعراء بلوائهم الى النار لقدمه فى الشعر ٠ وكان رسول الله (ص) لا يقول الشعر ولا يعلمه قال الله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له »

ولكنه كان يعجبه سماعه ولو كانت التقدمه فى الشعر لقدم على امريء القيس ابن حذام الذى ذكره فى شعره وليس هناك »

(١١) جمهرة القرشي

ص ٦٤ قال ابو عبيد معمر بن المثنى :

« ان امرأ القيس اشعر شعراء الجاهلية »

ص ٦٧ قال الفرزدق :

« ان الشعر كان جملا بازلا فنحر فجاء امرؤ القيس فأخذ رأسه »

الاغاني ١٦/٢٩٧ :

قال الامام علي : « وان يكن احد فضلهم فالذى لم يقل رغبة ولا رهبة

امرؤ القيس بن حجر فانه كان اصحهم بادرة واجودهم نادرة »
وانظر رقم (٩)

(١٢) الاغاني ١/٨٩

قال نافع بن الازرق لابن عباس :

« انا نضرب اليك اكباد الابل من اقاصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك الخ ... »

وفيه ١/٨٦ : (فى رواية)

مررت بجدك عبدالله بن مصعب وانا داخلة منزله وهو بفنائه ومعي دفتر فقال : ما هذا معك ؟ ودعانى فجئت وقلت : شعر عمر بن ابي ربيعة . فقال : ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر بن ابي ربيعة . ان لشعره لموقعا من القلوب ومدخلا لطيفا ، لو كان شعر يسحر لكان هو فارجعى به ففعلت . »

(١٣) الموشح ص ٣١٨ ـ ٣١٩

« قال (سليمان بن عبدالملك لعمر بن ابي ربيعة) السنت القائل ؟

وكم من قتيل لا يباء له دم ومن غلق رهنا اذا ضمه منى
وكم ماليء عينيه من شيء غيره اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

.. قال نعم . قال : لا جرم ! لا تحج مع الناس العام واخرجه الى الطائف حتى قضى الناس حجهم .

(١٤) الاغانى ٣/١٧٦

فى قول لمالك بن دينار وسوار بن عبدالله الاكبر :

« ما شيء ادعى لاهل هذه المدينة الى الفسق من اشعار هذا الاعمى (بشار) ... »

ورد القول ابو عبيدة :

« ما احسب هذا الشعر ابلغ فى هذه المعانى من شعر كثير وجميل وعروة بن حزام وقيس بن ذريح وتلك الطبقة »

(١٥ ـ ١٦) الاغانى ١٦/٢٩٧ :

قال الامام علي : « كل شعرائكم محسن ، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة فى القول لعلمنا ايهم اسبق الى ذلك وكلهم قد أصاب الذى أراد وأحسن فيه »

ويتضح اثر هذه العبارة فى الحماسة العجلة لوضع النظرية فى منهج مثالي فى موازنة الآمدى .

قال الآمدى فى الموازنة ١/٥

« أما انا فلست افصح بتفضيل احدهما على الآخر ولكنى اقارن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما اذا اتفقا فى الوزن والقافية واعراب القافية وبين معنى ومعنى ·

ثم اقول : ايهما أشعر فى تلك القصيدة ، وفى ذلك المعنى ، ثم احكم انت حينئذ ان شئت على جملة ما لكل واحد منهما اذا حطت علما بالجيد والردىء ·

··· فان محاسنهما تظهر فى تضاعيف ذلك وتنكشف ثم اذكر ما انفرد به كل واحد منهما فجوده من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه وافرد بابا لما وقع فى شعريهما من التشبيه وبابا للامثال اختم بهما الرسالة »

وبعد معاناة التجربة والتطبيق نرى الآمدي يعود الى أبعاد العبارة المنطقية فى نظريتها ويظهر فى قوله ·

الموازنة ١/٤٠٥ :

« وقد انتهيت الآن الى الموازنة !

وكان الاحسن ان اوازن بين البيتين او القطعتين اذا اتفقا فى الوزن والقافية واعراب القافية ·

ولكن هذا لا يكاد يتفق مع اتفاق (المعاني) التى اليها المقصد وهى المرمى والغرض وبالله استعين على مجاهدة النفس ومخالفة الهوى وترك التحامل فانه جل اسمه حسبي ونعم الوكيل ·

وانا ابتدى باذن الله من ذلك بما افتتحا به القول :

من ذكر الوقوف على الدمن والاثار
ووصف الدمن والاطلال
والسلام عليها
وتعفيه الدهور والازمان والرياح والامطار اياها
والدعاء بالسقيا لها
وذكر استعجامها مع جواب سائلها
وما يخلف قطينها الذين كانوا حلولا بها من الوحش
وفى تصنيف الاصحاب ولومهم على الوقوف عليها
ونحو هذا مما يتصل به من اوصافها ونعوتها
واقدم من ذلك ذكر ابتداءات قصائدهما فى هذه المعانى ان شاء الله »

(١٧) الموشح ص ٢٤٥

« قالت سكينة بنت الامام الحسين لكثير :

اتهب غيثا عاما جعلك الله والناس فيه اسوة ؟

فقال : يا بنت رسول الله (ص) وصفت غيثا فأحسنته وامطرته وانبته واكملته ثم وهبته لها . فقالت : هلا وهبت لها دنانير ودراهم ؟ »

وفيه ص ٢٣٩ :

« قالت امرأة لكثير : انت القائل :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى بمبح الندى جثجاجها وعرارها
باطيب من اردان عـزّة موهنا اذا اوقدت بالمندل الرطب نارها

قال : نعم . قالت : فضّ الله فاك ! ارايت لو ان ميمونة الزنجية بخرت بمندل رطب اما كانت تطيب ؟ »

(١٨) الموشح ص ٣٠٠

قال نصيب :

وكدت ولم اخلق من الطير ان بدا سنا بارق نحو الحجاز أطـــير

فيعلق ابن ابي عتيق على بيته بالعبارة التالية :

« يا ابن ام غاق فانك تطير ــ يعنى انه أسود كالغراب »

الاغـاني ١/٩١

يرد فيه بيت عمر بن ابي ربيعة :

اشارت بمدراها وقالت لاختها اهذا المغيرى الذى كان يذكر ؟

« فقال جميز :

امرأته طالق ان كانت اشارت اليه بمدراها الا لتفقا عينه ، هـــلا اشارت اليه بنقانق مطرف بالخردل او سنبوسجة مغموسة فى الخل او لوزينجة شرقة بالدهن فان ذلك انفع له واطيب لنفسه وادل على مودة صاحبه »

«١٩» الاغـانى :

١٠/٣١٩ قال خال زهير بن ابي سلمى له : « شعرى ورثتنيه »

وفيه ١/٧٥ قال محمد بن سلام عن غزل عمر بن أبي ربيعة وامه يمانية « ومن هناك اتاه الغزل . يقال : غزل يمان »

وفيه ٢١/٤١٠ وعلل الفرزدق شاعريته بانها جاءته « من قبل خـالي .... العلاء بن قرضة »

وفيه ١٢/٢٩١ وقال الشاعر يزيد بن الحكم :

« من هذا الذى ينشد شعرا كأنه من اشعارنا ... اشهد ان عمي ولدته ! »

(٢٠) الاغانى ١/٣١٤

(٢١) العمدة ١/١٨١ فيه :

« فمضى (كثير عزة) حنقا ، وطالت ليلته ولم يصنع شيئاً فلما كان قرب الصباح اتى جبلا بالمدينة يقال له ذباب ، فنادى :

اخاكم يا بني لبينى ! صاحبكم ! صاحبكم ! صاحبكم ! وتوسد ذراع ناقته وانثالث عليه القوافي انثيالا وجاء بالقصيدة بكرة وقد اعجزت الشعراء وبهرتهم طولا وحسنا وجودة »

(٢٢) الموشح ١٧٥

« كان الفرزدق يجتلب القصيدة ويجتلب المعنى ... فجاء رجل من قيس الى محمد بن رباط فاستعدى على الفرزق وقد سلم الفرزدق ثم خرج فقال محمد : ادعوا الفرزدق . فجاء فقال الفرزدق : سل هذا فيما يستعدى عليّ ؟ قال غلبني على قصيدة عمى الاعلم . فقال : اشهدكم انى قد رددتها . فقال محمد : نحوهما . »

(٢٣) الرسالة الحاتمية للحاتمي . بيروت ١٩٣١

ص ٢٣ قال :

« ووجدنا ابا الطيب أحمد بن الحسين قد اتى فى شعره باغراض فلسفية ومعان منطقية فان كان ذلك منه عن فحص ونظر وبحث فقد اغرق فى درس العلوم وان يك ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والالفاظ الغريبة وهى فى الحالتين على غاية من الفضل وسبيل نهاية من النبل وفضل علمه وادبه واغراقه فى طلب الحكمة مما اتى فى شعره موافقا لقول ارسطاليس فى حكمته »

(٢٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ت . أحمد محمد شاكر . قاهرة ١٩٦٦

ص ٦٣ : « فقد كان جرير والفرزدق والاخطل وأمثالهم يعدون محدثين وكان ابو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث »

(٢٥) الموشح : « حضرنا مأدبة وابو محرز خلف الاحمر وابن مناذر معنا . فقال له ابن مناذر : يا ابا محرز ان يكن امرؤ القيس والنابغة وزهير ماتوا فهذه اشعارهم مخلدة فقس شعرى الى شعرهم . قال : فاخذ صحفه مملوءة مرقا فرمى بها عليه »

(٢٦) الموشح ص ٤٠٧

« قال حدثنى الجاحظ ـ ان ابا عبيدة قال ـ وذكر ابا نواس : هو بمنزلة بان كملت آلته ونقص بناؤه وكان ينبغى ان يكون بناؤه أجود »

(٢٧) فقال الاصمعى (لاسحق الموصلى) : لمن تنشد ؟ فقال : لبعض الاعراب . فقال : والله هذا هو الديباج الخسروانى فقال اسحق :

انهما لليلتهما فرد عليه الاصمعى بقوله : لاجرم والله ان اثر الصنعة والتكلف بين عليهما »

« كنا عند ابن الاعرابى فانشده رجل شعرا لابى نواس احسن فيه ، فسكت • فقال الرجل : ما هذا من أحسن الشعر ؟ قال : فقال : بلى ولكن القديم احبّ الىّ »

وفى اخبار ابي تمام ص ١٧٥

قال ابن الاعرابي لتلميذ انشده شعرا :

« اكتب هذه فكتبتها ثم قلت : احسنة هي ؟ قال : ما سمعت باحسن منها • قلت : انها لابي تمام • فقال : خرق ! خرق ! »

(٢٨) فى الموشح ص ٣٨٤

قال ابن الاعرابي : « انما أشعار المولدين مثل ابي نواس وغيره مثل الريحان • يشم يوما ويذوى فيرمى به واشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا »

(٢٩) الحيوان ٢/١٣٠

قال الجاحظ : « والقضية التى لا احتشم فيها ولا أهاب الخصومة منها ان عامة شعراء العرب والاعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الامصار والقرى من المولدة والنابتة وليس ذلك بواجب فى كل ما قالوه وقد رأيت اناسا منهم يبهرجون اشعار المولدين ويستسقطون من رواها ولم أرَ ذلك قط الا فى راوية غير بصير بجوهر ما يروي ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفى أى زمان كان »

وقال : « ابيات أبي نواس على انه مولد شاطرا أشعر من شعر مهلهل فى اطراق الناس فى مجلس كليب »

(٣٠) الشعر والشعراء ص ١٠

« ولم اسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار له سبيل من قلد او استحسن باستحسان غيره ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على الفريقين واعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه »

(٣١) الاغانى ١٨/٣١٥

« وهو (مسلم بن الوليد) فيما زعموا اول من قال الشعر المعروف

بالبديع وهو لقب هذا الجنس (البديع) و (اللطيف) وتبعه فيه جماعة اشهرهم فيه ابو تمام الطائى فانه جعل شعره كله مذهبا واحدا منه ومسلم كان متفننا متصرفا فى شعره ٠ »

وفيه ٢٠٣/١٦ قال عن ابي تمام :

« شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعاني غواص على ما يستحب منها ويعسر متناوله على غيره وله مذهب فى (المطابقة) هو كالسابق اليه لجميع الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله »

وفيه ٤١/٢١ عن البحتري

« وكان البحترى يتشبه بابي تمام ويحذو مذهبه وينحو نحوه فى (البديع) الذى كان ابو تمام يستعمله ويراه صاحبا واماما »